﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ كما تطلّبه يوم الدنيا ﴿وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ وسعى له سعيه، ومتى اصطفيناه في الدنيا؟:

﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾:

وعلّه إسلامه بفعله لما أُمِر به قبل إسلامه المطلوب من ربه حين دعا ﴿وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ﴾.

فهناك إسلام قضيةَ كمال الإيمان، وهنا إسلام قضية الأمر الخاص، وعلّه لأمر خاص كما ﴿أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ ثم إسلام بعدهما تطلّباه إذ يرفعان القواعد من البيت، وقد يجمع مراتب الإسلام حديث قدسي يذكر عيشاً أهنى وحياةً أبقى[1].

(١) في البحار عن إرشاد الديلمي قال الله سبحانه: يا أحمد هل تدري أي عيش أهنى وأي حياة أبقى؟ قال: اللهم لا - قال: أما العيش الهنيء فهو الذي لا يفتر صاحبه عن ذكري ولا ينسى نعمتي ولا يجهل حقي، يطلب رضائي في ليله ونهاره، وأما الحياة الباقية فهي التي يعمل لنفسه حتى تهون عليه الدنيا وتصغر في عينه وتعظم الآخرة عنده، ويؤثر هواي على هواه ويبتغي مرضاتي، ويعظم حق نعمتي، ويذكر عملي به، ويراقبني بالليل والنهار عند كلّ سيئة أو معصية، وينقي قلبه عن كلّ ما أكره، ويبغض الشيطان ووساوسه ولا يجعل لإبليس على قلبه سلطاناً وسبيلاً، فإذا فعل ذلك أسكنت قلبه حباً حتى أجعل قلبه وفراغه واشتغاله وهمه وحديثه من النعمة التي أنعمت بها على أهل محبتي من خلقي وأفتح عين قلبه وسمعه حتى يسمع بقلبه وينظر بقلبه إلى جلالي وعظمتي، وأضيق عليه الدنيا، وأبغض إليه ما فيها من اللذات وأحذّره من الدنيا وما فيها كما يحذّر الراعي على غنمه مراتع الهلكة، فإذا كان هكذا يفرُّ من النار فراراً وينقل من دار الفناء إلى دار البقاء، ومن دار الشيطان إلى دار الرحمن، يا أحمد ولأزيّنّه بالهيبة والعظمة فهذا هو العيش الهنيء والحياة الباقية، وهذا مقام الراضين فمن عمل برضاي ألزمه ثلاث خصال: أعرّفه شكراً لا يخالطه الجهل، وذكراً لا يخالطه النسيان، ومحبة لا يؤثر على محبتي محبة المخلوقين، فإذا أحبني أحببته وافتح عين قلبه إلى جلالي، ولا أخفي عليه خاصة خلقي، وأناجيه في ظلم الليل ونور النهار حتى ينقطع حديثه مع المخلوقين ومجالسته معهم، وأسمعه كلامي وكلام ملائكتي، وأعرّفه السرّ الذي سترته عن خلقي، وألبسه الحياء حتى يستحيي منه الخلق كلهم، ويمشي على الأرض مغفوراً له. وأجعل قلبه واعياً وبصيراً، ولا أخفي عليه شيئاً من جنة ولا نار، وأعرّفه ما يمر على الناس=

﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُۚ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾:

﴿بِهَآ﴾: لا مرجع صالحاً لها إلّا ﴿مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ﴾ دون الإسلام لذكوريته، ثم وهذه هي ملة الإسلام في توحيد العقيدة والعمل.

﴿أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِي قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾:

هنا في ذكر إسماعيل في عداد آباء يعقوب دليل السعة في لغة الأب فهي تختلف عن الوالد، فأبوه آزر في آيات ليس والدَه، لا سيّما وأنه تبرأ من آزر ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ﴾[1] ثم نراهُ في أواخر عمره يدعو لوالديه ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ﴾[2] إذاً فوالده غير أبيه.

وإنه لمشهد عميق التدليل - في لحظات الموت - على عُمْقِ عقيدة التوحيد بين آل إبراهيم، فيعقوب - وهو رأسُ الزاوية في بيت إسرائيل - لا يوصي عند احتضاره بمال، ولا يشغله بال، إلّا ذلك الأمر الجلل فهو المبتدأ وهو المآل، فهو - فقط - تَركَتهُ وتركةُ آبائه، قضية كبرى لا تشغله عنها سكرات الموت، بل هي تشغله عمّا سواها.

﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِي﴾ اختبار حاسم تظهر فيه مدى الدعوة التوحيدية

= في القيامة من الهول والشدة وما أحاسب به الأغنياء والفقراء والجهال والعلماء، وأنومّه في قبره، وأنزل عليه منكراً ونكيراً حتى يسألاه، ولا يرى غمَّ الموت وظلمة القبر واللّحد وهول المطّلع، ثم أنصب له ميزانه وأنشر ديوانه، ثم أضع كتابه في يمينه فيقرؤه منشوراً، ثم لا أجعل بيني وبينه ترجماناً، فهذه صفات المحبين، يا أحمد اجعل همّك همًّا واحداً، واجعل لسانك لساناً واحداً، واجعل بدنك حياً لا يغفل أبداً، من يغفل عني لم أبال في أي واد هلك.

(١) سورة التوبة، الآية: ١١٤.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٤١.

لهم طول حياته الرسالية، يتلوه جواب حاسم ﴿نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَ...﴾ أن إلهنا جميعاً إله واحد، خلاف المشركين الذين لكلٍّ منهم إله أو آلهة، ثم ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ لا فقط مقرون وإنما إسلام له قلباً وقالباً.

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾:

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ﴾ موحدةٌ مسلمةٌ ﴿قَدْ خَلَتْ ۖ﴾ فخلف من بعدها خلْف أضاعوا ملتها الوحيدة الموحدة المسلمة، وتخلفت عن شرعة الله المرسومة بينها، فـ ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ من خير ﴿وَلَكُمْ﴾ الخلف المتخلف ﴿مَّا كَسَبْتُمْ ۖ﴾ - ﴿وَلَا تُسْـَٔلُونَ﴾ أنتم ﴿عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ كما وهم لا يسألون عما كنتم تعملون، كما ﴿وَلَكُمْ﴾ المسلمين ﴿مَّا كَسَبْتُمْ ۖ﴾ أمم ثلاث لكلٍّ ما كسبت وعليها ما اكتسبت.

وليست الأمة في ميزان الله أمة الجنس والإقليم والعنصر والتراب والدم، فإنها موازين لحيونة الأمم، أم وإنسانيتها المنفصلة عن شرعة الله، وإنما هي جماعة ذات قصد واحد: خيراً أو شراً، مهما اختلفت أجناسهم وأواصر الأنساب والقرابات فيما بينهم.

أجل - إنها أمة دينية وليست أمة طينية، وعلى هذا القياس فالكتلة الموحدة المسلمة من آل إبراهيم ﴿أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ ثم الكتلة الكافرة من آل إبراهيم أمة ﴿وَلَكُمْ مَّا كَسَبْتُمْ ۖ﴾ وكذلك المسلمون، من آمن منهم حق الإيمان ومن لم يؤمن، فلكلٍّ حساب حسب الصالحات والطالحات، دونما فوضى جزاف بحساب القوميات والعنصريات أم سائر الصّلات غير الروحية.

﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾﴾:

قالت اليهود: «كونوا هوداً تهتدوا» وقالت النصارى: «كونوا نصارى تهتدوا»[١] فكلٌّ يتمسَّك بطائفيةٍ خاوية عن ﴿مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا﴾ فمجرد كونك من أولاءِ أم هؤلاء يكفيك هدىً! ﴿قُلْ﴾: لا هذا ولا ذاك ﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا﴾ لا نسل إبراهيم كإبراهيم - إسرائيل وسواها - وإنما ﴿مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ هذه هي الهدى دون سواها، أيّاً كنت في أصلك ونسلك، في وصلك وفصلك، وقد يروى عن رسول الهدى ﷺ قوله: بعثت بالحنيفية السمحة[٢]، وترى الحنافة لمّا تكفي هدىً لأنها الإعراض عما يخالف الحق، ويقابله الجنف، فلماذا - إذاً - ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾؟.

علّه لأنهم تمسكوا بظاهر الحنيفية وانتساب النسب إلى إبراهيم الحنيف، فلكي يسدّ عليهم كلّ ثغرات الجَنَفِ تحريفاً لمعنى الحَنَف يصرّح ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ وقِسم من الهود والنصارى مشركون.

ولقد وصف ﴿حَنِيفًا﴾ وصف إيضاح بـ﴿مُّسْلِمًا﴾ في أخرى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[٣] مما يلمِّح أنهم كانوا يتذرعون بصيغة ﴿حَنِيفًا﴾ لإلصاق أنفسهم إلى إبراهيم، وكأن ﴿حَنِيفًا﴾ لقب يلقب به نسل إبراهيم أيّاً كانوا، فجاء ﴿مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ كإيضاح يخيّب آمال المشركين الحنفاء الجنفاء!.

---

(١) الدر المنثور ١: ١٤٠ عن ابن عباس قال قال عبد الله بن صوريا الأعور للنبي ﷺ: ما الهدى إلّا ما نحن عليه فاتبعنا يا محمد تهتدي، وقالت النصارى مثل ذلك فأنزل الله فيهم...

(٢) الدر المنثور ١: ١٤٠ - أخرج أحمد عن أبي أمامة قال قال رسول الله ﷺ: ، وفيه عن ابن عباس قال قيل: يا رسول الله ﷺ أي الأديان أحب إلى الله؟ قال: الحنيفية السمحة، وعن سعد بن عبد الله بن مالك الخزاعي قال قال رسول الله ﷺ: أحب الدين إلى الله.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٦٧.

فلأنَّ الملة الإبراهيمية هي الناصعة بين الغابرين في خالص التوحيد، المعروفة لدى الخواص والعوام، لذلك فليُعلن بملَّتهِ الوحيدة الكبرى بين أهل المِلَل الثلاث وسواهم من الموحدين - رفضاً لكلِّ الفواصل المختلقَة - من لدُن إبراهيم إلى موسى والمسيح وإلى خاتم النبيين ﷺ:

﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦﴾:

﴿قُولُوٓاْ﴾ أياً كنتم من الملل، سلسلةٌ موصولة متواصلة من مِلَلٍ كتابية ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ كأصل هو رأس زوايا الإيمان، ومن ثم فروع: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ ككل الكتابيين، ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ كمسلمين، والإيمان بكتابات السماء ذريعة للإيمان بالقرآن وكما يروى عن النبي ﷺ: «آمنوا بالتوراة والزبور والإنجيل وليسعكم القرآن»(١).

أم و«قولوا» أيها المسلمون ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾: القرآن - لا فحسب بل ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ . . . وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ﴾ قبل إبراهيم وبعده ككلٍّ.

وترانا كيف نؤمن بعد ما أنزل إلينا - وهو ناسخ - بما أنزل إلى سائر النبيين وهي منسوخة؟.

إنه إيمان تصديق بكلّ ما أنزل الله أنه من الله، ثم وإيمان تطبيق لكلٍّ في زمنه، فتطبيق لشرعة القرآن الناسخة للبعض من سائر الشرائع، وهو تصديق لها إذ تبشر بالقرآن، ثم ومحور الإيمان هو الإيمان بالله وبرسالاته واليوم

(١) الدر المنثور ١: ١٤٠ - أخرج ابن أبي حاتم عن معقل بن يسار قال قال رسول الله ﷺ: . . .

الآخر، الأصول الأساسية لكلّ إيمان، ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾[١] في هذه الأصول، ولا سيّما رأس الزاوية وهو توحيد الله ﴿وَنَحْنُ﴾ ككلّ ﴿وَنَحْنُ﴾ المسلمين ﴿لَهُۥ﴾ لا لسواه ﴿مُسْلِمُونَ﴾.

كما و﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ في ضابطة الإيمان، أن نؤمن ببعض ونكفر ببعض، فلا تفريق هنا أو هناك، وذلك كلمة الإيمان الجاسم الحاسم ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ حيث ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾[٢].

هذه هي قضية الإيمان المجرد عن انحيازات طائفية أم قبلية أما هي من امتيازات جاهلة قاحلة لا دور لها في حقل الإيمان الصالح.

وترى لماذا اختلاف التعبير لمنازل الوحي بـ﴿وَمَآ أُنزِلَ﴾ أولاً و﴿وَمَآ أُوتِىَ﴾ ثانياً، وهذا أعم من الوحي كما ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾[٣] والوحي النازل إلى موسى وعيسى أعلى نازلاً ومنزلاً من النازل إلى إسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط؟!.

علّه لأن أصل الوحي هو النازل على إبراهيم، ثم تبعاً له ولمن تبعه، ومن ثم أوتي موسى وعيسى والنبيون نفسَ الوحي مهما اختلف وحي عن وحي في درجات وبعض الطقوس، وذلك مُعاكسة لما كان يزعمهُ الهود والنصارى أنهم الأصل في الوحي.

وكما أن ﴿أُنزِلَ﴾ أعمُّ من الإيتاء والإعطاء، كذلك ﴿أُوتِىَ﴾ أعمّ من الوحي وسواه، فهذان التعبيران لسلسلة الرسالات الحاملة للوحي - علّها -

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٥.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٨٥.
(٣) سورة لقمان، الآية: ١٢.

للتدليل على أن النازل إلى المرسلين ليس عطية لهم فهم مالكوها، بل هو إيتاءٌ كأمانةٍ ووديعةٍ مرجوعة بعد تطبيقها، فتلك الوحدة الكبرى بين الرسل والرسالات في أصول الدعايات والاتجاهات، هي القاعدة المتينة الرصينة للتصور الإيماني المسلم السليم، السائرة في كلّ الدروب على هدى ونور، التي تجمع كلّ الشعوب - بلا تمييز - على درب الإسلام التام والسلام العام، مفتوحاً للناس جميعاً وكلّ العالمين في مودةٍ ووئامٍ، ذلك هو الإيمان الإسلام السليم أيّاً كان وأيان ومن أيٍّ كان:

﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾:

﴿ءَامَنُواْ بِمِثْلِ﴾ دون «آمنوا بما آمنتم به» تنازلٌ في درجات الإيمان، فإنهم لم يكونوا مؤمنين بمثل ذلك الإيمان المجرّد عن حسابات دخيلةٍ فيه، فكيف يُدعون إلى نفس ذلك الإيمان المجرد، إلّا قفزة لا تناسب سليم الدعوة والدعاية.

فليؤمنوا أولاً ﴿بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ إيماناً بكلّ ما أنزله الله على رُسُلِهِ دون تمييز، ثم وذلك الإيمان المجرد يجرهم بطبيعة الحال إلى نفس ما آمنتم به من رسالة الإسلام، حيث الإيمان السليم بالوحي الكتابي، يجذب إلى الإيمان بمحور الوحي: القرآن العظيم، ولا يعني ﴿بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ مثل الله الذي آمنتم به، حتى تسقط «مثل» عن لفظ القرآن[1] إذ «ليس كمثله شيءٌ» بل هو مماثلة في أصل الإيمان، لا الذي يُؤمَن به، إيماناً بالله كما آمنتم، وإيماناً برسالات الله كما آمنتم.

(١) الدر المنثور ١: ١٤٠ عن ابن عباس قال: لا تقولوا ﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ فإن الله لا مثل له، ولكن قولوا: فإن آمنوا بالذي آمنتم به، وفيه عن أبي جمرة كان ابن عباس يقرأ: فإن آمنوا بالذي آمنتم به.

﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ عن مثل هذا الإيمان ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾ تقسيم لبلد الإيمان إلى شقين: إسرائيلي وإسماعيلي، وذلك شقٌّ لوحدة الدين والإيمان، وخروج عن واقع الإيمان إلى اللّاإيمان، أم هو أنحس - أحياناً - من الكفر المطلق!.

إذاً ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بعدما أديت واجب الدعاء وبالغ الدعوة، فالله هو الكافي لا سواه، فلا ترجُ في سدِّ ثغراتهم إلّا إيّاه ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لحواركم حول الدين، و﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ لدعائك وسؤالك حفاظاً على الدين ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما يصلحك ويصلح هذا الدين، فـ ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾[1] وكلّ ما في البين حقاً ولا حول عنه هو:

﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾:

آية فريدة في صيغة التعبير، عرضاً جامعاً لما يتوجب الالتزام به على كلِّ العالمين، فما هي ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ حتى نصطبغ بها أو نلتزمها؟ وليست لله صبغة يمكن الاصطباغ بها، ولا أية صبغة!.

﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ هي من إضافة الفعل إلى فاعله، كخلق الله وروح الله وأخلاق الله وشرعة الله أم أي فعل لله، وهي كفطرة الله أدبياً ومعنوياً مهما كانت أعم منها ومن سائر الصبغة، تكوينية وتشريعية، فهي مفعول مطلق نوعي تعني صبغاً خاصاً إلهياً لقبيل الإنسان وسائر المكلفين، مما للإنسان في أصله خيار كمتابعة الفطرة والعقل والشرعة الإلهية، أم ليس له خيار كأصل الفطرة، أمّا يقدم سببه كتطبيق ما لَه خيار ثم الله يهديه كما اهتدى.

وإضافة الفعل إلى فاعله كما هنا تقدِّر «من» النشوية، أي: صبغة ناشئة من الله كسائر خلق الله.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ١٠٥.

فليست من إضافة الصفة إلى موصوفة تقديراً لـ«في» أن تكون هذه الصبغة في الله كسائر صفاته الذاتية، أم «ل» حيث تعم ما تعنيه «من - و - في».

ففي ذلك المثلث من تقادير الجار المحذوف لا تصلح هنا إلّا ﴿مِنَ﴾ إذ ليست لذات الله صبغة وحتى المعنوية، حيث الصبغة حالة خاصة من الصّبغ وليست له تعالى حالة دون أخرى إذ لا حدّ لذاته وصفاته حتى تصبغ بصيغة! وإنما المعني منها ما صبغ به خلقه.

ولقد صبغ الله الناس كلهم بصبغة الفطرة، ثم العقلية التي تتبنّاها، ثم شرعة من الدين الهادية لهما، الشارحة لأحكامهما، الشارعة سبيلهما إلى الخير المُرام، ولقد اختصرت في: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ . . .﴾ ولها - ككل - حصيلة مزيد الهدى والتقوى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾[١].

ثم وهي «الإسلام»[٢] و«الولاية في الميثاق»[٣]: إسلاماً لله ورسله وكتبه، وولاية توحيدية ورسالية أما هيه من ولايات إسلامية، كلّ على درجاته.

وقد تتعلّق ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ بكلّ من ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ - ﴿ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾ - ﴿نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ﴾ - ﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ - ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ ﴿ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم﴾ والكلّ راجع إلى الإسلام والولاية في الميثاق في ذلك المثلث البارع الذي هو كيان الإنسان كإنسان: «فطرة الله - العقل - شرعة الله»!.

---

(١) سورة محمد، الآية: ١٧.

(٢) تفسير البرهان ١: ١٥٧ يروى تفسير ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ بالإسلام عن عبد الله بن سنان وحمران ومحمد بن مسلم وأبان وعبد الرحمن بن كثير كلهم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «الصبغة هي الإسلام».

(٣) المصدر عن الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال: صبغ المؤمنين بالولاية في الميثاق.

صبغة سابغة سابقة على كلِّ صبغة لأنها ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَٰبِدُونَ﴾ كما صبغَنا - في مثلث الفطرة والعقلية والشرعة - بعبادته السليمة عن كلِّ إشراك ودون أي عراك.

ويا له من تعبيرٍ مُنْقطِع النظير، يتصبغ أولاً بـ ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ أمراً إلزامياً من الله، بمواصفة غالية تجعلها في أعلى قمم الحسن والجمال، وثانياً بإقرار المصبوغين بها ﴿وَنَحْنُ﴾ المسلمون المحمديون ﴿لَهُ﴾ لا لسواه ﴿عَٰبِدُونَ﴾ لا نعبد إلّا إياه، كحصيلة بارزة لصبغة الله.

فحذارِ حذارِ في دين الله وشرعته عن كلِّ صبغة غير إلهية في قالٍ أو حالٍ أو فعالٍ على أية حال، في تكوين أو تشريع أم أية صبغة ربانية.

وكما الصبغة المادية تظهر على المصبوغ كأولى المظاهر، كذلك الصبغة الروحية من طبعها الظهور في كافة المظاهر الحيوية الإنسانية، وقد سُميت بصبغة الله عناية بتلك الظاهرة في مظاهر الأقوال والأفعال، كما هي في كامنات العقائد والأحوال، فكلٌّ إناءٍ بما فيه يرشح، فالفطرة - وهي أعمق أعماق الإنسان - لمّا تصبغ بصبغة الله، فلتُصَبَّق - على آثارها - النفس بكلِّ جنودها ومراحلها الخيِّرة: عقلاً وصدراً ولبّاً وقلباً وفؤاداً، ومن ثم في كافة الحواس ومظاهرها في كافة الحقول، والقلب الفؤاد هو المحور الأصيل كإمام الأئمة في مملكة النفس الإنساني، حيث «القلوب أئمة العقول والعقول أئمة الأفكار والأفكار أئمة الحواس والحواس أئمة الأعضاء».

وكلّ صبغةٍ دون صبغة الله هي صبغةٌ إبليسيةٌ مهما اختلفت دركاتها، كما والصبغة الإلهية - في حَقْلِ التكوين والتشريع والتكليف، والواقع الحاصل بينها - درجات.